المنهج التاريخي عند عبدالله الحيدري

دراسة في الإجراء والإستراتيجية

أ.د. جلال أبوزيد هليل

أستاذ الأدب والنقد - كلية الألسن- جامعة عين شمس

مقدمــة:

تقوم الدراسة الأكاديمية على ترسيخ المعالجة المنهجية للظواهر المنعكسة في المدركات، مما يعني نفي العشوائية الحائلة بين الذات والعالم، والمنهجية – أيًّا كانت مرجعياتها الفلسفية وخطواتها التنفيذية وغاياتها الإنتاجية – تعود إلى نشاط أساسي هو إمعان النظر من الذات العاقلة في مادة العالم والتصورات السائدة بصددها.

ولا يمكن أن تؤسس المنهجية مشروعها دون أن تضع في اعتبارها إعمال العقل بطريقة نظامية تتجنب الانفعالية والأوهام، وتنتقد نواتج الفكر السابق باستقراء تام يحيط بمحاوره المتعددة، كي تستدل المعالجة البحثية على حقيقة الصواب الخالصة المنتقاة بعناية من شوائب النزعات الزائفة، تلك النزعات التي قد تكون متنامية عن طريق القصدية المتعمدة لأغراض نفعية، أو ربما كانت وليدة المصادفة بحكم قصور التأمل العقلي لعلة خارجية في عمليات التجريب أو داخلية في انقياد الأحكام لتصوّر شائع أو انقياد عملية الفحص لهوى الذات غير المدربة على التجريد.

مهما تعددت المناهج البحثية في الفضاء الأكاديمي فإن المنهج التاريخي يظل القاعدة التي تحمل البناء العلمي في كل مشروع بحثي أيًّا كانت العلوم التي تعالجها الأبحاث، والاستغناء عن المنهج التاريخي يعني أن يفقد الباحثون الذاكرة المؤسسة للهوية الأكاديمية، فالعلم خبرات متوالية متفاعلة تجدد نفسها بالابتكار الذي تضيفه من الجدل الدائم بين العقل واللغة والمادة.

وكل ما تنقله اللغة من العالم المادي الخارجي أو العالم الشعوري الداخلي يعد موضوعًا للتأمل، وكل موضوع يحمل تاريخه في كيانه الوصفي، مما يعني أن الحديث عن منهج وصفي مستقل عن التاريخية أمر يستحيل وجوده، ويقع في وهم الباحثين أحيانًا أن المنهج الوصفي يستبعد المرجعية التاريخية للموضوع، كما يقع

في وهم القائمين على علوم التربية وصناعة البرامج التعليمية أن التذكّر عملية سلبية، فإذا سألتهم هل يمكن طرح الأسئلة على ذاتٍ أصابها مرض الزهايمر فنسيت الأبجدية سيقولون هذا مستحيل.

ومن المؤكد أن التواصل بين العقل والمادة العلمية يقوم على مرجعية تاريخية، وفي الإبداع لن يولد شاعر لم يحفظ التاريخ الشعري ويستوعبه ويتجاوزه بالابتكار، لكن الكسل العلمي يجعل بعض من يزعم العلمية يخشى التعامل مع المرجعية التاريخية، وهذا يجعل عمله منبت الصلة عن الصرح العلمي المتصل، وهل يضمن من يعزل عمله البحثي عن المنهج التاريخي أن يكون هناك من سبقه فأنتج هذا العمل قبله؟

ومن مشاكلنا الأكاديمية أننا نغفل أهم خطوة في أدبيات البحث وهي الاستقراء العلمي للدراسات السابقة التي يمكن الإفادة منها والتي سيكون البحث ضمن تخصصها.

تتوجه النزعة المعرفية لعبد الله الحيدري إلى فن التراجم، وتستمد من التاريخ منهجية المعالجة، وهذا ما يتضح في وضع مشروعه العلمي للتأمل، فتظهر أمام الباحث استراتيجية الحيدري التي تلتمس من التطور الحضاري مجالًا لرصد التفاعل بين الإنسان بملكاته وأدواته وتنامي مداركه من جهة، والمكان بإطاره المحيط الحامل لصورة العالم من جهة ثانية، والزمان بصيرورته السياقية الممتدة حاملة متغيّرات الطبيعة الكونية والمنجز البشري الفكري والتقني الذي يصنع وسيطًا ثقافيًا ممتدًا نحاول فهمه بتحليله إلى مراحل لها مساراتها ومحطاتها من جهة ثالثة.

هذه العناصر الثلاثة هي التاريخ الذي ينتمي إليه فن التراجم وأدب السيرة أيًّا كانت الوضعية البحثية التي ينطلق منها الباحث في التراجم، فالعلوم الإنسانية تمدنا بخبرات ومقولات لكنها لا تستطيع أن تعزلنا عن التاريخ، وهذا ما يجعل المرجعية التاريخية تفرض نفسها على دارس التراجم، ومن المفيد أن ينال ذاك

الدارس رصيدًا معرفيًّا من علم النفس أو علم الاجتماع أو الدراسات الحضارية والثقافية، أو العلوم الطبيعية.

وقد تمنح تلك العلوم سواء أكانت إنسانية أم طبيعية شيئًا من منهجيتها للدارس، ويظل التاريخ هو الحقل الميداني للعمل مما يجعل المنهج التاريخي أداةً محوريةً في دراسة التراجم أيًا كان تصنيف أصحابها في مجالات الفنون والعلوم.

إن اسم العلم يحمل تاريخًا له جذوره اللغوية والمكانية والزمانية، وعبدالله بن عبدالرحمن الحيدري مؤرخ الأدب العربي ولد في البير شمال الرياض بالمملكة العربية السعودية عام ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م وكتابة التاريخ بالهجري والميلادي منهجية تاريخية ترتبط بهويةٍ وانتماءٍ وثقافةٍ وعصرٍ تعيش فيه الذات بين ثقافتين بينهما تفاعل.

ولم يكن بإمكان عبدالله الحيدري أن يتخذ التاريخ منطقة عمل ومنهجية بحث قبل أن يجتاز التعليم المدرسي والجامعي بالحصول على الشهادة الجامعية عام ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م بتخرجه في كلية الآداب جامعة الملك سعود، فالرجل اختار الأدب مادة يتجلى فيها أثر التاريخ.

كان فن التراجم الذي نبغت فيه العقلية العربية مجال إضافة الحيدري الباحث على مدى مشروعه الواضح، وأخلص الرجل لهذا المشروع مع الصعوبات التي يواجهها الباحثون الذي يخلصون للمنهج التاريخي، فبدأ الخطوة الأولى في مشروعه العلمي بأطروحة الماجستير وعنوانها :السيرة الذاتية في الأدب السعودي عام ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م فتطلبت الدراسة عشرة أعوام من الاطلاع لجمع المادة وتصنيفها وتحليلها ومقارنة الآراء وتصويب الأخطاء واستخلاص النتائج وصياغة النص العلمي بأسلوبٍ رصينٍ ليحصلَ على الدرجة من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

وواصل العمل في ذاك الحقل الذي يستولي على الجهد والوقت تمامًا فكانت أطروحته للدكتوراه بالمؤسسة الأكاديمية نفسها التي نال فيها درجة الماجستير في السير الذاتية الأدبية السعودية، ولكنه اختص في الدكتوراه بتتبع الإنتاج النثري لشخصية أدبية بعينها فكان عنوانها "آثار حسين سرحان النثرية" وأنجزها عام ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م بعد سبعة أعوام من الخبرة العلمية التي اكتسبها فترة العمل في رسالة الماجستير.

وينطلق عبدالله الحيدري في حقل العمل الثقافي رابطًا بين المنهجية الأكاديمية والحياة الفكرية العامة مواصلًا مشروعه العلمي المختص بالتاريخ الأدبي، فيقدّم للرصيد الثقافي كتبه في ثلاثة حقول مترابطة متصلة داخل حقل الدراسات في التأريخ الأدبي للثقافة العربية:

- **الحقل الأول:**

ببليوجرافي تأسيسي عام يؤرخ لفتراتٍ ممتدة مستقصيًا الظاهرة، ويشمل:

النقد الأدبي في المملكة العربية السعودية، وإضاءات في أدب السيرة والسير الذاتية، ودليل الرسائل الجامعية في الأدب والنقد في المملكة العربية السعودية، ومن الواضح أنها أعمالٌ تاريخيةٌ في مجال الأدب تتميز بالاتجاه الاستقرائي الإحصائي الذي يجمع مادة متناثرة في تبويب موضوعي يفيد منها الباحثون في الدراسات العربية أيًا كانت المناهج التي ينطلقون منها، والغايات التي يتجهون إليها، والقيم المضافة التي ستحسب لهم في مجال البحث الأدبي العربي.

- **الحقل الثاني:**

بالإضافة إلى أعمالٍ عن شخصيات مهمة في ترسيخ العمل العلمي والإبداع الأدبي بالمملكة العربية السعودية مثل أعماله: علي جواد الطاهر وجهوده في

التأريخ للأدب في المملكة العربية السعودية، وعبدالعزيز السبيّل مهندس الثقافة السعودية، وابن الثقافة وأبو الرواية حامد الدمنهوري وغيرها.

- **الحقل الثالث:**

كتب عامة في تاريخ الأدب العربي منها :ملامح ورؤى، وفي حقول الشعر، وعلى هامش الكتب، وفن صياغة التغريد.

ولم يغفل الباحث الذي درس فن السيرة الذاتية أن ينشر ملمحًا من سيرته تحت عنوان :من أوراق مذيع، مفيدًا من خبرته النظرية ومجال عمله الإعلامي الإذاعي.

كما حاول التأصيل لأحد الفنون الاتصالية الأدبية الحديثة بعمله الذي يمكن أن يعد رائدًا في هذا المجال وهو فن صياغة التغريدات، ذاك الفن الذي يمارسه كثير من البشر بخاصة عشاق الكتابة دون أن تكون له قواعده المنظمة لخطاب إنتاجه.

وحسنًا فعل الحيدري في ذاك الكتاب الذي كانت له فيه نظرة المحقق اللغوي بالإضافة إلى الفكر الإعلامي الذي يجيد الحيدري العمل في مجاله منذ أن عمل رئيسًا لقسم المذيعين ثم رئيسًا لقسم الإعداد بإذاعة الرياض، قبل أن ينتقل من وزارة الثقافة والإعلام إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ليعملَ بها أستاذًا مساعدًا في قسم الأدب بكلية اللغة العربية، فيصل خبراته الأكاديمية بخبراته الإعلامية، ويقوم بدوره في إعداد جيل من الأكاديميين المستنيرين الذين يجيدون البحث المنهجي والتواصل مع الحياة الثقافية في آنٍ واحد.

يتخذ هذا البحث هويته العلمية من فرضية محددة هي أن عبد الله الحيدري كانت له استراتيجية فكرية تتصل بالمنهج الذي اختاره للعمل في مجال الدراسات الأدبية العربية وهو المنهج التاريخي، فالبحث العلمي لا تنفصل فيه الغاية عن الوسيلة، أي الرؤية عن الإجراء المنهجي، وهذه الفرضية تتضح في القراءة التحليلية

لمشروع الحيدري العلمي ونشاطه الأدبي في الحياة الثقافية بالمملكة العربية السعودية.

ويترتب على تلك الفرضية أن المناهج العلمية لا تنفصل عن المقصدية الفكرية، وأن خطوات الإجراء هي درج متصاعد للوصول إلى الحقيقة أو تنقيتها أو تثبيتها، وأن المناهج لابد أن تصدر عن موقف فكري فلسفي متصل بنظرية المعرفة السائدة التي يتخذ منها الباحث مرجعية عامة في طرح الأسئلة والمسارات وتوجيه النتائج إلى غاياتٍ نافعةٍ للمجتمع الذي ينتمي إليه والبشرية كافة، والفصل بين المناهج والغايات أمر يؤدي إلى ضلال السعي العلمي في متاهات عشوائية، لذلك فالمنهج التاريخي يطرح أهمية فكرية تهتدي بها إجراءاته التطبيقية.

انطلاقًا من الفرضية فإن البحث يتحرك في محورين هما:

- إجراء المنهج:
- استراتيجية المنهج:

وفيما يأتي نعالج هذين المحورين بشكلٍ مستقلٍ لبيان حضوره واستنباط سماته، مع الوضع في الاعتبار العلاقة القوية الحيوية التي تصل الإجراء بالاستراتيجية.

- **إجراء المنهج:**

تتميّز الحياةُ الأكاديميةُ بالمنهجية، والمنهجُ method "برنامجٌ ينظم مسبقًا سلسلة عمليات ينبغي إكمالها، بغية بلوغ نتيجة معينة" (لالاند ص٨٠٣-٨٠٤) وهو في حد ذاته إجراءٌ تاريخيٌّ في الإدراك والتنفيذ، ولاشك أننا إذا قمنا باستقراء أولي لعناوين أعمال عبد الله الحيدري تخبرنا نتيجته عن المنهج الذي يتبعه الحيدري وهو المنهج التاريخي، ويمكن تحديد مفهوم الاستقراء بأنه "استدلال يتألّف من عددٍ من المقدمات، كلما زاد عددها ازداد احتمال صدق النتيجة" (زيدان ص٤١) والمقدمات

التي نضعها للاستدلال هي عناوين الحيدري، ونستحضر أهم ما يدل على تاريخانية الإنجاز العلمي للحيدري:

- السيرة الذاتية في الأدب السعودي.
- آثار حسين سرحان النثرية.
- النقد الأدبي في المملكة العربية السعودية.
- دليل الرسائل الجامعية في الأدب والنقد في المملكة العربية السعودية.
- علي جواد الطاهر وجهوده في التأريخ للأدب في المملكة العربية السعودية.
- عبدالعزيز السبيّل مهندس الثقافة السعودية.
- ابن الثقافة وأبو الرواية حامد الدمنهوري وغيرها.

يعتمد المنهج التاريخي على مجموعة من العمليات الأدائية، وكل منهج له عملياته لالتماس جوهر الحقيقة، أو تمهيد السبل المؤدية إليها في المسار الحضاري الذي يحتاج إلى إعمال العقل لنشر ثقافة التنوير والارتقاء بالحياة كي تليقَ بأسرةٍ إنسانيةٍ ترسي نجاحها بالتطوّر مستثمرة خبراتها، وهذا الاستثمار هو الوفاء الحقيقي لجهود العلماء الذين أثروا البشرية بالفعل ومنحوا أرواحهم وفكرهم ووقتهم لإنجاز قيمةٍ مضافةٍ للعالم الكبير الآتي بعدهم في الأفق التاريخي، إنهم صنّاع التاريخ ومن حقهم أن نفي لهم بالتأريخ لهم ودراسة إنتاجهم، وفي هذا إضافات متجددة للبشر.

إن تكريم العلماء الحقيقي هو إلقاء الضوء على أعمالهم لاستخلاص طرائق تفكيرهم التي أدت إلى إنتاج أعمالهم، وطرائق تفكير العلماء هي المناهج التي يمكن أن نكرّسها في برامج التعلّم المتعددة المتطورة في نسقٍ تاريخيٍّ، فعمليات التعلّم تسير وفقًا للنسق التاريخيّ، وفيما يأتي نحدد العمليات الإجرائية للمنهج التاريخي كما تتجلى في أعمال الحيدري.

- **التوثيق:**

لا يمكن أن يتخلّى المنهج التاريخي عن التوثيق الذي يعد البنية الواقعية للصرح النصيّ المتصاعد في طريق الكشف، ويلتزم عبد الله الحيدريّ بالمنهجية الوثائقية في الإطار المنهجيّ التاريخيّ الكليّ، وها هو يتحدث في السيرة التي كتبها عن مؤرخ الأدب السعوديّ علي جواد الطاهر الذي يواصل الحيدري المسار الذي مهده الطاهر في وضع دعائم التاريخ الأدبيّ للثقافة العربية، قائلًا:

"لم تنقطع صلة الدكتور الطاهر بعد عودته إلى العراق بطلابه وزملائه ومحبيه، فإضافة إلى صلته كاتبًا في المجلات السعودية، ظل على تواصل مع بعض طلابه، وفي المقدمة يحيي محمود بن جنيد، إذ نشأت بينهما مراسلات مدة طويلة، ويحتفظ جنيد بعددٍ كبيرٍ منها مؤرخة في المدة من ١٣٩٠- ١٤١٤هـ (١٩٧٠-١٩٩٤م) وفيها يطلب ملحوظاتٍ على ما ينشر من حلقات ضمن معجم المطبوعات.. ويطلب بعض الكتب التي صدرت، ويطرح بعض المقترحات بشأن مجلة عالم الكتب، ويسأل عن تلاميذه وزملائه من الأساتذة، ويعرض خدماته لتأمين بعض الكتب العراقية، ويقول في رسالة تاريخها ٨/ ٦/ ١٩٧٢م "سررت كثيرًا للملاحظات التي أبديتها على المعجم، وإني لأنتظر المزيد."" (الحيدري: علي جواد ص١٥) ...

هذه المادة الوثائقية تحمل كثيرًا من المعلومات:

- تعد قرينةً نفسيةً لشخصية علي جواد.
- تبرز الحياة الاجتماعية للمثقفين العرب.
- تستحضر الهوية المعرفية للمؤرخ علي جواد الذي يبحث عن مراجعاتٍ تضيف إلى عملِه، فالباحثُ التاريخيُّ يجد في النقد مجالًا خصبًا ينير الطريق إلى الحقيقة الناصعة التي يتوخاها الباحثون بخاصة أصحاب النزعة التاريخية في المادة والمنهج.

- تشير إلى مسار صاحب السيرة علي جواد في الزمان والمكان.
- تصل الثقافات العربية عبر الإقليمية.
- تربط بين أبناء الجيل الواحد.
- تربط بين الأجيال في مجال العلم.

هذه الوثيقة تحتاج إلى توثيقٍ، وهذا ما قام به الحيدريُّ حين قال في الهامش "عدد الرسائل في حدود عشرين رسالة، وتكرّم الدكتور يحيي فزوّدني بصوّر منها بتاريخ ١٤٤٠/٨/٢٤هـ (٢٠١٩/٤/٢٩م) وبعد وفاته (يقصد وفاة علي جواد الطاهر) نشر الدكتور يحيي واحدة مؤرخة بعام ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، وهي أطول الرسائل، وتتعلّق بمجلة عالم الكتب وسبل تطويرها (مجلة عالم المخطوطات والنوادر– المجلد الثاني –العدد الثاني– رجب/ذو الحجة ١٤١٨هـ/ ديسمبر ١٩٩٧م) (الحيدري: علي جواد ص١٥) فالتوثيق هنا يعتمد على الرؤية العينية المباشرة ليتفق المنهج التاريخي مع منهج الملاحظة في العلوم الطبيعية.

ويقوم الحيدريُّ بدورٍ مهمٍ في جمع المادة التاريخية معتمدًا على التجربة الشخصية التي تحقق له التوثيق الذي لا يقبل الشك، فيقول في ترجمته لعبد العزيز السبيّل:

"ويذكر الدكتور السبيّل في سياق استدعاء ذكرياته عن الدراسة.. أن دراسة النحو الواضح في المرحلة المتوسطة، وشرح ابن عقيل لألفية ابن مالك في المرحلة الثانوية، كانتا تشكلان تأسيسًا لغويًا قويًا. وأشار إلى أن من أساتذته في المرحلة المتوسطة والثانوية في المعهد العلمي الدكتور محمد الربيع، والأستاذ عبدالله العقل، والدكتور عبدالعزيز الفيصل، والأستاذ يحيي الشهاري، والأستاذ عبدالرحمن الحسين." (الحيدري: عبدالعزيز ص٢٩–٣٠)

ويوثّق هذه المعلومات في الهامش قائلًا: "من مقابلة شخصية مع الدكتور عبد العزيز السبيّل في مكتبه في مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني ٢/٧/ ١٤٤١هـ/ ٦/١٠/ ٢٠١٩م" (الحيدري: عبد العزيز هامش ص٣٠)

الترتيب:

يركز المنهج التاريخيُّ على الترتيب الزمنيّ لمحتويات المادة العلمية، وهذا ما يفعله الحيدري، وتمثله الفقرة الآتية من حديثه عن حامد دمنهوري: "من أقدم النصوص التي بين أيدينا قصيدته "فجر" التي ألقاها أمام الملك فيصل – رحمه الله – حينما كان نائبًا عن والده في الحجاز، وذلك في الاحتفال الذي أقيم في حي جرول في مكة المكرمة في التاسع من شهر صفر من عام ١٣٦٦هـ" (الحيدري: ابن الثقافة ص١٥)، ويتصل بالترتيب الحرص على ذكر التاريخ بدقة مع المعلومات، فالإجراء التوثيقيُّ يربط الحدث بالزمن، وهذا أساس العملية التأريخية التي تحافظ على الدقة، وتصل بين الظواهر، وتضع الفاعليات في متوالية زمنية جديرة بالملاحظة، فالإنسان يرصد عالمه بالتتابع الذي يقيم علاقة بين الأحداث، ولا يمكن للعقل البشري أن يرى العالم كله طولًا وعمقًا في لحظة واحدة ، فلا شك أن "الكل يحيا في كل جزءٍ من الأجزاء، وهذا المعنى لا يمكن أن يبدو إلا في كل الظواهر مجتمعة، ولا تبدو هذه الظواهر إلا في في صورة تعاقب فقط، فلا يمكن أن تُرى كلها مجتمعة، إن العبارة القائلة "نموت ونصير" تكشف لأول مرةٍ المضمونَ الحقيقيَّ للتاريخ." (كاسيرر ص١١) فالترتيب ربط بين الكل والأجزاء مما يعني أنه أجراءٌ يحقق استراتيجية فكرية للتفاعل الكوني المترابط عبر التاريخ، أي أن الإجراء خطوة جزئية نابعة من استراتيجية كلية، وهذه قيمة مهمة للمنهج التاريخي.

التأصيل:

ومن الترتيب يصل عبدالله الحيدريُّ إلى التأصيل، وهذا عملٌ علميٌّ جليلٌ يحدد مواضع التأسيس الثقافي لأشكال الإنتاج الإبداعي، يقول:

"وفي العام ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م ظهرت أول سيرة ذاتية في شكل روائي، أو ما يمكن أن يطلق عليه في المفهوم المعاصر "رواية السيرة الذاتية"، ونقصد كتاب أحمد السباعي "أبو زامل" الذي تحوّل بعد ذلك إلى "أيامي" وصرّح فيه باسمه،

وتتابعت الأعمال بعد ذلك متخذة أشكالًا متعددة، منها ٤٦ يومًا في المستشفى لمحمد عمر توفيق، وهذه حياتي لحسن محمد كتبي، وهي أعمال يحمد لها الظهور المبكر في أدبنا مشكّلة البواكير لفن السيرة الذاتية في الأدب السعودي." (الحيدري: نظرات ص٢٨)

الاستقراء الحصري:

يبحث الحيدريُّ عن مفردات مادته العلمية كاملة للوصول إلى الدقة التي توفّر لأحكام الباحث درجةً عاليةً من المصداقية في الحكم، فيقول: "دمنهوري شاعر مقلّ جدًا، وكل ما استطعنا العثور عليه من شعره تسع قصائد فقط، وتواريخ نشرها قديمة تمثّل بواكير أدبه." (الحيدري: ابن الثقافة ص١٥) والملاحظ أن الحيدري يبني على الاستقراء أحكامًا علمية تتصل بالشخصية التي يكتب ترجمتها، فكل عملية إجرائية تصل بالباحث إلى نتائج واضحة، ويصل الاستقراء إلى الاستقصاء الإحصائي عند الحيدري: "وفي المدة من ١٣٩٢– ١٤٠٠هـ (١٩٧٢– ١٩٨٠م) صدرت أربعة أعمال وهي تجربتي الشعرية لحسن القرشي، وذكريات طفل وديع لعبد العزيز الربيع، وذكريات لأحمد علي، وسيرة شعرية لغازي القصيبي." (الحيدري: نظرات ص٢٨)

التحقيق والاستدلال:

يواجه الباحث الذي يعالج المادة التاريخية من خلال آثارها المشتتة مشكلةً في الوصول إلى الحقيقة، لذلك فإنه يجمع المادة ثم يصنفها في محاور، ثم يبدأ في قراءة كل محور على حدة مراعيًا الترتيب الزمني، ثم يقارن المرويات، ويستخلص أخطاءها، ويرجح بين مدلولاتها حتى يصل إلى الحقيقة أو يقترب منها، أو يلقي الضوء على النقاط المؤدية إليها ليفيد منها جهد اللاحقين في تاريخ العلم.

إن تاريخ ميلاد أو تاريخ وفاة يشغل الباحث التاريخيَّ كثيرًا لأنه قد يؤدي إلى نتائج خطيرة في تصنيف الاتجاهات الفكرية أو تحديد الريادة فيها، أو معرفة

عمليات التأثير والتأثر بين الثقافات، من هذه الجهة يجد المتلقي أن الحيدري يبذل غاية جهده في الاستدلال على صحة تاريخٍ مصوّبًا ما وقع لدى الكتّاب من أخطاء بالمقارنة العلمية.

ويمثّل النص الآتي من مؤلفه على هامش الكتب تقنية الاستدلال القائم على المقارنات في تحديده لتاريخ وفاة الأديب الشاعر حمزة شحاتة:

"من الأخطاء التي تكررت في أكثر من كتاب، تاريخ وفاة حمزة شحاتة– رحمه الله– فبعض المراجع أشار إلى أنه توفّي في عام ١٣٩٠هـ، ومنها كتاب "أدباء سعوديون" للدكتور مصطفى حسين، و"هويّة الكاتب المكي" لتميم الحكيم، ومنها كتاب لشحاتة نفسه وهو "إلى ابنتي شيرين" إذ ورد في الغلاف الخلفي للكتاب بأنه توفّي في ١٢/١٢/ ١٣٩٠هـ، وبعضها حدد وفاته بعام ١٣٩٢هـ، ومنها كتاب عزيز ضياء "حمزة شحاتة: قمّة عرفت ولم تكتشف"، وفي "معجم الكتّاب والمؤلفين في المملكة العربية السعودية" الصادر عن الدائرة للإعلام بالرياض عام ١٤١٣هـ في طبعته الثانية، وأشرفت عليه لجنة علمية من المتخصصين في الأدب السعودي حددت وفاته بعام ١٣٩٣هـ! والصواب أنه توفّي في ١٢/١٢/١٣٩١هـ، لأن جميع المراثي الشعرية والنثرية نشرت في شهر ذي الحجة من عام١٣٩١هـ، وفي شهر المحرم من عام ١٣٩٢هـ، فكيف تصح وفاته في عام ١٣٩٠هـ أو عام ١٣٩٢هـ؟" (الحيدري: على هامش ص٢٦)

بعد الاستدلال على الرأي الصحيح يقوم الحيدريُّ بعملية تحليلٍ للخطأ، وهذا اتجاهٌ فكريٌّ يعمّق المنهج التاريخي، ويلاحظ القارئ البنية التفسيرية لمعالجة الخطأ في الفقرة الآتية التي يواصل فيها الحديث عن الأخطاء التي وقعت في تاريخ وفاة حمزة شحاتة متتبعًا سلسلة المرويات:

"وفي ظني أن سبب الاختلاف منشؤه الخطأ الذي وقع فيه عزيز ضياء في كتابه عن حمزة شحاتة الصادر في عام ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، إذ أشار إلى تاريخ

وفاته باليوم والشهر والسنة عندما قال: "وما كاد ينشر خبر وفاته في الثاني عشر من شهر ذي الحجة عام ألف وثلاثمئة واثنين وتسعين حتى ازدحمت جميع صحف المملكة ومجلاتها بما جاشت به نفوس الأدباء وعواطفهم." ص٥. ومن الطريف أن الدكتور مصطفى حسين في كتابه "أدباء سعوديون" ص١٩٤ نقل هذا النص عن عزيز ضياء وسقطت أثناء النقل كلمة (اثنين) فقال: "وفي الثاني عشر من ذي الحجة عام ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م توفّي حمزة شحاتة بالقاهرة – رحمه الله – يقول رفيقه وصديق عمره عزيز ضياء: "وما كاد ينشر خبر وفاته في الثاني عشر من ذي الحجة عام ألف وثلاثمئة وتسعين.." فيلاحظ أنه سقطت كلمة (اثنين) أثناء النقل، وعن مصطفى حسين نقل تميم الحكيم وغيره ممن قال بعام ١٣٩٠هـ، أمّا كل من قال بعام ١٣٩٢هـ فمرجعه عزيز ضياء، وأمّا من قال بعام ١٣٩٣هـ فيبدو أن الرقم اثنين تحوّل إلى ثلاثة بخطأ طباعي." (الحيدري: على هامش ص٢٧– ٢٨)

هنا يصبح للمنهج التاريخي عمقه بالإضافة إلى امتداده، ومن الواضح أن عبدالله الحيدري يمارس دور المحقق بالمقارنة والاستدلال ثم تتبع رحلة الخطأ بقراءة جدلية تصل بين الصورة الأولى له وتكراره في مرويات تعيد إنتاجه، ويفسّر الأخطاء بمنهجية علمية، ويستخدم عبدالله الحيدري تقنيات الكتابة الرقمية في تحديد موضع الخطأ عن طريق تعميق درجة اللون الأسود في الخط، وهذا يعادل النبر في الخطاب الشفهي.

وحسنًا فعل الحيدريُّ حين أطلق على مقاله "عندما تخون الذاكرة"؛ فقد صوّب أخطاء وقع فيها الكتاب وهم يترجمون لأنفسهم كما نرى في الفقرة الآتية:

"ومن أواخر الأوهام في كتابة التواريخ، ترجمة الشاعر عبدالله بن إدريس لنفسه في ديوانه الجديد "أأرحل قبلك أم ترحلين؟" الصادر في عام ١٤٣١هـ/٢٠١٠م عن مكتبة العبيكان، إذ ورد فيه أنه رأس نادي الرياض الأدبي من ١٤٠٢– ١٤٢٣هـ، والصواب أنه رأس النادي من عام ١٤٠١هـ إلى نهاية شهر شعبان من

عام ١٤٢٢هـ، وبعدها تولّى مجلس إدار النادي الدكتور محمد الربيّع إلى نهاية شعبان من عام ١٤٢٦هـ" (الحيدري: على هامش ص٢٨-٢٩)

لقد استثمر الدكتور عبدالله الحيدري التقنيّات الإجرائية للمنهج التاريخي كما رأينا في استخدامه للتوثيق والترتيب والتأصيل والاستقراء الحصري والتحقيق والاستدلال للوصول إلى الحقيقة التاريخية الجلية التي تضع الأساس المعلوماتي للباحثين بمناهجهم المتعددة للقيام بعمليات وصفية أو تحليلية أو تركيبية أو تأويلية بما يناسب الغايات العلمية التنفيذية للمجتمع والإنسانية.

استراتيجية المنهج:

السؤال المعرفي الذي يطرحه المتأمّل في دراسات المناهج العلمية هو لماذا يختار الباحث هذا المنهج أو ذاك؟ وهذا ما نطلق عليه استراتيجية المنهج.

اتخذ الحيدري المنهج التاريخي أداة عمل لكن هذه الأداة مرتبطة بالسياق والأهداف، فالتاريخ ذاكرة تحتاج إليها الأمم في عصور تواجه فيها كثيرًا من المصاعب التي تنازع هويتها، هنا يدرك الباحث أنه في حاجة إلى تأكيد مقومات هويته وتنقيتها وتصحيح الأخطاء التي يمكن أن تصبح مع مرور الزمن حقائق بديهية، هذا موقف استراتيجي لاستخدام المنهج التاريخي عند الحيدري في وقت يهرب بعض الباحثين الذين يبتغون بريق الإنجاز السريع على حساب التأصيل والفهم الدقيق للظواهر.

المنهج التاريخي يساعد على حفظ الذاكرة الجمعية للشعوب وفقًا لنظام عقلي واضح الخطوات في اتجاه المعرفة، يدعّم الرأي بالقناعة المنطقية، هذه القيمة مهمة للثقافة العربية، يدرك الأكاديميون المستنيرون دورهم في ترسيخ المنهج العلمي في إطار من التفاعل الذهني بين الذات ومكوناتها الثقافية النامية عبر التاريخ.

يمارس عبدالله الحيدري المنهج التاريخي لقناعته العميقة بقيمة الهوية العربية التي تنطق بها الثقافة الأدبية في المملكة العربية السعودية وتكرّسها في

السياق الثقافي العربي الكلي الذي تتفاعل إقليميته بصورة حيوية طبيعية يوفّر لها التاريخ مساحة اللقاء تحت مظلة الكلمة التي تحفظها اللغة القادرة على وصل الحاضر بالمستقبل في وحدة زمنية.

يستمد المنهج التاريخي من تفاعل الماضي والحاضر صورة ذهنية لذاكرة علمية مستقبلية، وفي الإجراء المنهجي قدّم عبد الله الحيدري نموذجًا لتفسير الأخطاء التاريخية من خلال تقنية منهجية هي الاستدلال الاستقرائي، وهو عملية مهمة في الوصول إلى حقيقة متوارية في العناصر التي تقدمها المسلّمات للباحث، يستخلصها من الاستقراء واختبار المسلّمات، ويقيم علاقة جدل بين المسلّمات لمعرفة أسباب الخطأ فيها، لذلك نتفق مع مقولة إن "االاستدلال الاستقرائي أداة المعرفة التنبؤية، ولقد كان بيكون هو الذي أدرك بوضوح ضرورة الاستدلالات الاستقرائية في المنهج العلمي." (ريشنباخ ص ٢٠٣)

قد يصوّب أساتذة النحو أخطاء الطلاب لكن الخطأ يقع مرة أخرى ربما من الطالب نفسه، لكن الطالب إذا مارس منهجية أسباب حدوث الخطأ فإنه لن يقع فيه، أو في المادة الاحتمالية التي يمكن أن يأتي فيها الخطأ على النسق نفسه، فنحن نعلم الطلاب حفظ الصواب دون أن نعلمهم أسباب حدوث الأخطاء وهذه قيمة مهمة تجعل استراتيجية المنهج التاريخي عند عبد الله الحيدري مرتبطة بآليات فكرية تنظم العمليّات الذهنية التي يقوم بها العقل الذي يمارس الخطاب العلمي والتعليمي.

من الواضح أن الاستدلال الاستقرائي بقدرته على تمهيد الطريق العقلي للمعرفة التنبؤية يصل المنهج التاريخي بقيمة التطور، فنحن لا نعرف الماضي لتغييره أو الحياة فيه، إنما نحاول إقامة مشروع مستقبلي من تعديل العمليّات البنائيّة التي أنتجت الماضي بحيويته وفاعليته وإمكاناته وبما فيه من أخطاء نستطيع تفسيرها فلا نقع في شباكها مرة أخرى.

يمنح المنهج التاريخي الحياة الثقافية صورة شاملة للعالم بمساره الأفقي وعمقه الرأسي، إنه يساعدنا على تأمّل العالم بوضوح قدر الإمكان متجاوزين هشاشة اللحظة والخوف من المستقبل.

يصل المنهج التاريخي بين الإنسان والحضارة، إن كلمة آثار يستخدمها الباحث في المنهج التاريخي وهو يدرس الأدب مثلما يستخدمها علماء التاريخ والحضارة.

ويتصل بالتطور مواكبة الأشكال الجديدة، وفي الوقت نفسه الالتزام بسلامة الأداء اللغوي، وهذا ما فعله عبد الحيدري في كتابه بخاصة مقاله "من أخطاء المغردين وغير المغردين" (الحيدري فن صياغة ص١٥) فاللغة هي الحصن الواصل بين حلقات الزمن في المنهجية التاريخية التي يمارسها الحيدري باستراتيجية غايتها الحفاظ على الهوية مع تطوير المنجز المعرفي بخاصة الأدبي.

****

نتائج البحث:

فيما يأتي نحدد أهم النتائج التي استخلصها البحث من معالجة المنهج التاريخي عند الدكتور عبد الله الحيدري:

- المنهج التاريخي أساس مهم في الحياة الأكاديمية بخاصة الدراسات الإنسانية.
- اعتمد الدكتور عبد الله الحيدري على المنهج التاريخي في دراسته لمادة تاريخية الطابع، متخصصة في دراسة الأدب العربي.
- اهتم الحيدري برسم مسار تاريخي لحركة الأدب في المملكة العربية السعودية بخاصة فن السيرة.
- أنجز الحيدري أعمالًا ببليوجرافية بصدد الأدب في المملكة العربية السعودية.
- وضع الحيدري أعلام الثقافة السعودية على الخريطة الأدبية للحركة الثقافية.
- درس الحيدري الأدب السعودي في حركته الجدلية مع الثقافة العربية فنجد عنده اهتمامًا بمبدعين مثل المازني ومؤرخين مثل علي جواد الطاهر، فضلًا عن العلاقة الحيوية بين المثقف السعودي والحياة الثقافية المصرية.
- اعتمد الحيدري على إجراءات المنهج التاريخي المتنوعة كالتوثيق والترتيب والتأصيل والاستقراء والاستدلال.
- قام الحيدري بمهمة المحقق في أبحاثه ومقالاته الخاصة بالتاريخ الأدبي.
- المنهج العلمي يرتبط باستراتيجية الباحث.
- يستخدم الحيدري المنهج التاريخي من استراتيجية الحفاظ على الهوية وتنقية التراث من الأخطاء.
- يؤصل الحيدري للأشكال الأدبية في المملكة محددًا البدايات التأصيلية والامتداد المجدد.
- ينطلق الحيدري من المنهج التاريخي لقناعته بقيمة التطوّر.

- المنهج التاريخي عند الحيدري يجمع بين دراسة التطور الأفقي والعمق الرأسي للظاهرة الأدبية.
- يواكب الحيدري الأشكال التعبيرية المتجددة فيختص فن التغريد بعمل له ريادة في التأصيل للفن.
- اللغة محور مهم في فكر الحيدري وتصويب التاريخ لا ينفصل عنده عن تصويب الأخطاء اللغوية المعاصرة وهذا واضح في كتابه عن فن التغريدات، فاللغة هي خط الدفاع عن الهوية وأداة يمكن تطويع إمكاناتها لاستيعاب التطور المعرفي.

****

قائمة مرجعية:

- الحيدري، عبد الله بن عبد الرحمن: ابن الثقافة وأبو الرواية حامد دمنهوري ١٣٤٠- ١٣٨٥هـ/ ١٩٢٢- ١٩٦٥م – مقالاته وشعره وقصصه – نادي مكة الثقافي – المملكة العربية السعودية – مؤسسة الانتشار العربي – بيروت – لبنان الطبعة الثانية – ١٤٤٢هـ/ ٢٠٢١م
- الحيدري، عبدالله بن عبدالرحمن: عبدالعزيز السبيّل- مهندس الثقافة السعودية- النادي الأدبي بالرياض- المملكة العربية السعودية – الطبعة الأولى – ١٤٤١هـ/٢٠١٩م
- الحيدري، عبد الله بن عبد الرحمن: علي جواد الطاهر وجهوده في التأريخ للأدب في المملكة العربية السعودية – كتاب الدارة – دارة الملك عبد العزيز – الكتاب التاسع والعشرون – المملكة العربية السعودية – الطبعة الأولى ١٤٤٠هـ – ٢٠٢٠م
- الحيدري، عبدالله بن عبدالرحمن: فن صياغة التغريدات – مؤسسة الانتشار العربي – بيروت –لبنان–الطبعة الثانية– ١٤٣٩هـ – ٢٠١٨م
- الحيدري، عبدالله بن عبدالرحمن: نظرات وشذرات- بحوث ومقالات وحوارات في السيرة الذاتية – مؤسسة الانتشار العربي – بيروت- لبنان- الطبعة الأولى ٢٠١٨م
- ريشنباخ، هانز: نشأة الفلسفة العلمية – ترجمة فؤاد زكريا – طبعة مكتبة هنداوي – لندن – المملكة المتحدة – ٢٠٢٠م
- زيدان، محمود فهمي: الاستقراء والمنهج العلمي – دار الجامعات المصرية – الإسكندرية – مصر – ١٩٧٧م
- كاسيرر، أرنست: في المعرفة التاريخية – ترجمة أحمد حمدي محمود – مراجعة علي أدهم – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر – طبعة ثانية – ١٩٩٧م

- لالاند، أندريه: موسوعة لالاند الفلسفية – تعريب خليل أحمد خليل – إشراف أحمد عويدات – منشورات عويدات بيروت / باريس – طبعة ثانية ٢٠٠١م

****